الفصل الرابع

حجاج

هاربورغ

استمر محمد في الإقامة في سكن الجامعة وفي العمل في مكتب التخطيط بلانكونتر أثناء دراسته في جامعة هامبورغ. وفي عام 1996 تراجعت أعمال مكتب التخطيط واضطر أصحابه إلى تسريح بعض العمال. وكان محمد من بين الذين سرحوا من العمل. كره محمد فقدان وظيفته، بحسب ما ذكره لمديره جوغ لوين، ولكنه غادر بالمعروف[1]. ومن باب الحرص الذي يتميز به، أعاد محمد مبلغاً من المال من آخر راتب تلقاه من الشركة اعتقاداً منه بأنه يزيد عن أجرته المستحقة عن الساعات التي عملها نتيجة خطأ في الحساب. وأنهى محمد المساقات الدراسية المطلوبة منه في الربيع التالي. ولم يبق أمامه سوى كتابة رسالة الماجستير للحصول على الشهادة. وبدلاً من العمل على كتابة الرسالة اختفى من الجامعة كلياً. ولم يحدث بينه وبين الجامعة أي اتصال تقريباً على مدى سنة كاملة حتى خريف 1997.

غادر محمد مدينة هامبورغ لبعض الوقت، إلا أنه اختفى فيها وليس بعيداً عنها بقية المدة. فقد أقام عدداً من الحلقات التدريسية والندوات في مركز الأبحاث الذي قدم له منحة البحث في القاهرة. وكانت هذه الحلقات لطلاب يرغبون القيام بمشاريع مشابهة لتلك التي قام بها في القاهرة. لم يختلف محمد في التدريس عما كان عليه عندما كان طالباً. كان جيد التحضير، يراعي التفاصيل الدقيقة، جاداً، غير ممتع، هذا بحسب وصف أحد

الأشخاص الذين حضروا واحدة من الحلقات[2]. وأضاف هذا الشخص، وهو من مصر، بأنه كان متشوقاً لمقابلة مصري آخر في بلاد الغربة بعيداً عن الوطن الأم، إلا أن محمداً، مع أنه لم يكن عدائياً، لم يبد سوى قليل من الاهتمام بالتحدث إلى الرجل. وكانت تلك الحلقات تضم ضمن فعالياتها بعض النشاطات الاجتماعية المسائية. لم يحضر محمد أياً منها. وقال الشخص المصري بأن محمداً كان يبدو دائماً منشغلاً. وكان هناك "حاجز" بينه وبين الطلاب، بحسب وصفه.

أما الشيبة، أو عمر كما يسميه كل الذين يعرفونه، فلم يكن عنده مثل هذه المشكلات. فبينما كان محمد شديداً، كان عمر حالماً. وبينما كان محمد مركزاً، داكناً، ومقطباً (حديدياً كما وصفته صاحبة البيت الذي سكن فيه عندما قدم إلى ألمانيا)، كان عمر هادئاً مرحاً، مبتهجاً طليقاً. ويصفه شهيد نيكلز، وهو من جنوب إفريقية اعتنق الإسلام وأصبح صديقاً لعمر بعد أن تعرف عليه في مسجد القدس، قائلاً: "كان متشدداً في المسائل الدينية، إلا أنه كان مسترسلاً، ...وعلى أية حال ... كان أكثر ارتياحاً في تعامله من محمد الأمير مثلاً، الذي كان دائماً متشنجاً"[3]، ويضيف نيكلز كان عمر "يعشق الحياة"، وكان يرى نفسه فارساً مقاتلاً.. وكبقية اليمنيين، كان يتفاخر بجمال الطبيعة في وطنه الأم، وبخاصة جبال حضرموت.

ويضيف نيكلز: "كان عمر شديد التدين، جذاباً، خفيف الظل، ذكياً. لا يمكنك إلا أن تحب الرجل..." كان لا ينتقد الناس مباشرة، بل كان يتحدث عن أخطاء مشابهة ارتكبها هو. كان ذكاؤه العاطفي ومعرفته بطبائع الناس محل إعجاب؛ كنت ترى دائماً أنه يتفهم دوافع الناس الذين يقابلهم. كان يعرف كيف يقدم نفسه وكيف يتصرف معهم".

وكان مظهر عمر الخارجي يعزز شخصيته. فقد كان صغير الحجم نحيلاً يعلوه وجه منشرح دائم التبسم، وبشرة بنية داكنة، وصوت رقيق مرتفع يخلو من أي نبرة تهديديه. كان لديه معتقدات متشددة إلا أنه كان يقدمها بسلاسة ورقة، بحسب ما يصف نيكلز. ونادراً ما كان يشعر بالكآبة، ولكن عندما ينتابه حزن كان يضع كل ثقته بالآخرة. "ما قيمة هذه الدنيا؟ إن الجنة أفضل منها بكثير،" هكذا كان يقول[4].

كان نيكلز ضمن مجموعة غير رسمية تضم عناصر من الجامعة ومن المساجد بدأت تترافد حول عمر ومحمد الأمير عام 1997. والمجموعة مكونة من الشباب بشكل عام، يفتقد معظمهم إلى المعرفة الشاملة بالإسلام، أو كما في حالة نيكلز، ليس لديهم أي معرفة بالإسلام. كان عمر أول من أخبر نيكلز بالحقيقة البدهية أن اسمه الأول "شهيد" يعني الشخص الذي يموت في سبيل الله باللغة العربية. (أحب والدا نيكلز هذا الاسم لطريقة لفظه فقط لا لشيء آخر) وكان عمر ومحمد الأمير بحكم المرشدين لشباب المجموعة الذين كانت غالبيتهم من الطلاب. ولم يبذل عمر والأمير جهوداً في نشر الدين بقدر محاولتهما الدعوة بين صفوف العرب. فكانا يذهبان إلى المساجد وحلقات التعليم حول المدينة ويعرضان خدمة ترجمة وتوضيح معاني القرآن[5]. وتوسعت المجموعة لتضم محمد راجح وهو يمني مثل عمر، وعدداً من الشباب المغاربة من مسجد القدس - زكريا الصبار، منير المتصدق، وعبدالغني مزودي، وسعيد بهاجي. وكان المتصدق ومزودي يعرفان محمد الأمير منذ عام 1996 على الأقل، عندما شهد الاثنان على وصيته التي كتبها[6]. وكان الصبار من القادمين الجدد، أما بهاجي المولود لأم ألمانية وأب مغربي، فولد ونشأ منذ صغره في ألمانيا قبل أن ينتقل والده بالأسرة إلى المغرب، وكان عائداً لتوه إلى ألمانيا.

يصعب على المرء أن يتخيل كم أمضى هؤلاء الشباب من الوقت في التفكير والحديث والمناقشة والقراءة حول الإسلام، لدرجة أن ذلك أصبح العمل الوحيد بالنسبة لبعضهم. وكان بعض أعضاء هذه المجموعة يلتقون في مؤخرة متجر لبيع الكتب قرب مسجد القدس، حيث كانوا يستمعون إلى أشرطة الخطب والدروس والأناشيد المتعلقة بالجهاد. ومن الأمثلة على بعض هذه الأناشيد تلك التي تقول: "عندما أموت شهيداً فإني أموت أنساناً أفضل"[7]. وكانت تدور بينهم نقاشات حادة حول معاني الآيات القرآنية وأحاديث الرسول. وكانت الغالبية العظمى من تلك المناقشات متعلقة بالدين. ويقول أحد المحققين الألمان: "هؤلاء الأشخاص لا يتحدثون عن قضايا الحياة اليومية، كشراء سيارة – فهم يشترون سيارات ولكنهم لا يتحدثون عنها، كانوا يتحدثون ويتناقشون في المسائل الدينية كل الوقت ...هؤلاء الناس يعيشون فقط لأجل دينهم، وهذا يعني بالنسبة لهم أنهم يعيشون الآن من أجل حياتهم بعد الموت، الجنة. يريدون أن يعيشوا حياتهم في طاعة ربهم، حتى يدخلوا الجنة. وما سوى ذلك ليس له أي أهمية"[8].

بيروت

كانت المجموعة مرنة ومتغيرة. ابتعد بعض عناصرها شيئاً فشيئاً، وهرب آخرون بعدما شاهدوه من الشدّة التي أخذت تترسخ في المجموعة. وقد بلغ الخوف في بعضهم درجة دفعتهم إلى الرحيل إلى مدن أخرى. وعلى مدى ثلاثة أعوام، تعاقب على المجموعة أكثر من عشرين شخصاً بين خارج منها ومنتم إليها. ومن بين المنتمين الجدد شاب لبناني اسمه زياد جراح، وكان بحسب كل المعايير مرشحاً بعيد الاحتمال ليكون محارباً إسلامياً.

كان جراح ولداً وسيماً متوسطاً والابن الوحيد لأسرة مثابرة مجدة من الطبقة الوسطى اللبنانية. ولد عام 1975، وكان أبوه موظفاً من الدرجة

الوسطى في الشؤون الاجتماعية، وكانت أمه المنحدرة من أسرة غنية تعمل مدرّسة. وتمتلك الأسرة سيارات مرسيدس، وشقة سكنية في منطقة مكتظة للسنة في بيروت. وتشكل المنطقة اليوم صورة مثالية لأزمة حياة المدينة المزدحمة. حيث ينشر الغسيل في الشرفات التي ترتفع ثمانية وتسعة وعشرة طوابق فوق الشارع. ويلعب الأولاد كرة القدم بين أعمدة الكهرباء التي تتدلى منها أعلام النوادي المحلية، ويتجمع الرجال الذين يلبسون القمصان ذات الأكمام القصيرة حول طاولات الزهر على جانبي الطريق. لم يكن هذا المكان آمناً عندما نشأ فيه زياد. فقد كان منزل جراح لا يبعد سوى شارعين عن الخط الأخضر الذي كان يفصل بين الأطراف المتصارعة خلال الحرب الأهلية اللبنانية الطويلة. وعلى بعد شارعين من الجهة الأخرى، كان يقع مخيم صبرا وشاتيلا المتمدد، حيث قتل مئات من الفلسطينيين في ظل الاحتلال الإسرائيلي عام 1982. ومنذ ذلك الوقت تحول المخيم إلى مستعمرة فلسطينية دائمة ومكتظة[9]. ولا تزال كثير من البنايات في المنطقة تتخللها ثقوب الأعيرة النارية للأسلحة الرشاشة. وبعضها الآخر عانى من دمار أكبر بفعل قذائف المدفعية والهاون؛ وما زالت بعض البنايات تفتقد إلى واجهات وأجزاء كبيرة منها.

وفي أوج الحرب الأهلية أواخر السبعينيات من القرن الماضي، اشترت أسرة زياد منزلاً ثانياً للمأوى في منطقة المرج، وهي القرية التي تنحدر منها أسرة زياد في وادي البقاع. ويقضي سمير والد زياد معظم وقته في المنزل الريفي. أما زياد فكان يحب المدينة، وقلما كان يذهب إلى البقاع خاصة بعد أن عاد الهدوء إلى بيروت في التسعينيات. والتحق زياد بمدرسة مسيحية خاصة – وهي علامة على الثراء والطموح، ولا صلة لها بالميول الدينية. وكان زياد فطناً إلا أنه لم يكن مهتماً بدراسته، وأوشك في إحدى السنوات أن يرسب في صفه[10]. وكان اهتمامه، بحسب رأي أسرته، منصباً على الفتيات أكثر منه على الدراسة.

كانت أسرته مسلمة لا دينية، وهو التوجه السائد في بيروت، وهي المدينة التي تفتخر بطابعها المدني. ويقول جمال جراح، عم زياد، لقد كانت الأسرة متساهلة جداً في أمور الدين لدرجة أن جمالاً نفسه لم يعرف أنه مسلم إلا عندما بلغ سن المراهقة[11]. وكانت الصديقة المقربة من أمه تعمل لدى قسيس بروتستانتي، وكانت تأخذ جمالاً معها إلى الكنيسة كل يوم أحد؛ ونشأ وهو يظن أنه مسيحي. ولم يكن والد زياد متديناً هو الآخر. وكانت الأسرة متحررة جداً - كان الرجال يشربون الويسكي، وكانت النساء يرتدين التنورة القصيرة حين يخرجن من المنزل والمايوه حين يذهبن إلى شاطئ البحر للسباحة.

وكان زياد ذكياً، ولكنه كان مهملاً للدراسة في الثانوية. وعندما أنهى الثانوية، خيرته أسرته في الدراسة الجامعية بين مكانين يوجد فيهما أقارب له في الخارج، وهما: مدينة تورنتو في كندا، أو مدينة غريفسوالد في ألمانيا، وهي مدينة صغيرة تقع في الشمال الشرقي لألمانيا على شاطئ البلطيق. وصل زياد وابن عمه سالم إلى غريفسوالد في ربيع 1996، وذلك بعد وقت قصير من التحاق فتاة مفعمة بالحيوية اسمها آيسل سينغن في كلية طب الأسنان في تلك الجامعة.

تعرف زياد على آيسل خلال شهر من وصوله المدينة الألمانية، وتحديداً في اليوم الذي انتقل فيه إلى سكن الطلاب في جامعة غريفسوالد، وكانت آيسل، التي أمضت في الجامعة فصلاً دراسياً واحداً، تسكن في الطابق نفسه الذي سكنه زياد. وهي ابنة لأسرة تركية محافظة هاجرت إلى ألمانيا لكسب الرزق واستقرت جنوب ألمانيا. وكانت ترتبط بعلاقة مع شاب آخر، إلا أنه يبدو أن زياد كان الجواب الأنسب لكثير من الأمنيات والأحلام: فهو شاب نشأ في المدينة وترتسم على وجهه ابتسامة عريضة، وهو مثلها مسلم معتدل يحب الاستمتاع بالحياة. وكانت تتساءل في نفسها عن بعض المشاكل المحتملة، إذ أسرّت إلى أختها بأن الرجال العرب ينزعون إلى السيطرة والتحكم بنسائهم، إلا أنها مع

ذلك، قبلت بالمجازفة[12]. وارتبط الاثنان. فكانا يطهوان الطعام معاً. وتساعده في تعلم الألمانية. وتدل الصور التي التقت في تلك الفترة، بما فيها الصورة التي يبدو فيها زياد وهو يشعل الأرجيلة، أنهما أخذا قسطهما من المرح واللهو.

لم ينضم الجميع إلى المجموعة. ومن الأشخاص الذين أصبحوا من الأصدقاء المقربين من جراح، شخص يدعى عبدالرحمن المخدي، ويدرس في كلية الأسنان التي تدرس فيها آيسل، وكان يشتهر عنه حول الجامعة بأنه الشخص الذي نصب نفسه مسؤولاً عن فرض الدين الإسلامي؛ وكان ينطلق من مسجد صغير مبني من الطوب يسميه السكان المحليون "الصندوق". وبداخله، كان المخدي، وهو يمني، يدعو إلى تفسير متشدد للإسلام، ويجمع التبرعات لصالح الجماعة الفلسطينية المسلحة حماس. وفي الخارج، كان المخدي لا يتوانى عن مضايقة المسلمين في جلبهم لحضور الصلاة. وكان جراح يذهب هناك أحياناً، أيام الجمعة، كمناسبة اجتماعية أكثر منها دينية[13]. وكان جراح وأصدقاؤه يذهبون إلى الصلاة، ثم يحاولون التهرب لشرب البيرة بعد ذلك، إلا أن المخدي لم يكن ليفسح المجال لأي أحد بالخروج. وكان يجلس بعد الصلاة يدرس حتى الساعة الثانية أو الثالثة صباحاً.

يقول عاصم جراح، ابن عم زياد، والذي سكن غريفسوالد عندما أقام المخدي المسجد: "لقد قلت [للمخدي] بأن هذا الأسلوب خطأ"، وأضاف "إن الله ليس بحاجة إلى هذا"، إلا أن ذلك لم يثن المخدي عما كان يفعل. وكان المسجد يوفر للرجل اليمني، الذي كان متزوجاً وله عدة أبناء، مصدراً للعيش. فقد كان يشتري الأغذية العربية من هامبورغ ويحضرها إلى المسجد في غريفسوالد ليبيعها هناك، كما يذكر عاصم.

عاد زياد إلى بلاده خلال إجازة فصل الشتاء. وعندما عاد من هناك بدا وكأنه تغير، فلم يعد ذلك الشاب المرح المستهتر. ولاحظ ابن عمه سالم، أن

زياداً بدأ بقراءة مجلة إسلامية متطرفة تسمى الجهاد[14]. وتذكر إحدى صديقات آيسل أنه في بداية عام 1997 تحدث إليها زياداً وأخبرها عن أنه" غير راض عن حياته حتى تلك اللحظة". وقالت الصديقة بأن زياد قال لها بأنه يريد أن يحدث أثراً في حياته وأنه "لا يريد أن يغادر الأرض بطريقة طبيعية"[15].

ولا يوجد أي مؤشر حول سبب هذا التغيّر[16]. وفي تلك السنة، وفي سهل البقاع، بدأت حركة إسلامية سنية بالظهور، مستخدمة الإنترنت والاجتماعات المصغرة لنشر رسالتها. وكانت الجماعة آخذة في الانتشار عندما كان زياد في لبنان أثناء إجازة الشتاء، ولكن لا يوجد دليل على حدوث اتصال بهذه الجماعة. ويقول سالم جراح، بأن ابن عمه كان بحكم الشجرة التي تفتقد إلى الجذور؛ و لم تكن غريفسوالد مكاناً مناسباً لتلك الجذور بالنسبة للعربي. فالمدينة تبدو أنها في عالم آخر يختلف عن العالم الذي توجد فيه بيروت المدينة الكبيرة ذات الجو المشمس، والتي تعتبر نفسها، كباقي العواصم، مركز العالم. وسكان بيروت بأناقتهم وبهرجتهم ينافسون سكان نيويورك وباريس في غرورهم وخيلائهم. وقد سخر سالم وزياد عندما شاهدا المكان الذي قيل لهم بأنه المكان المفضل في غريفسوالد للسهر والسمر، وهو فلاي إن ديسكو. كانت المدينة قاتمة ومعتمة، وتشبه إلى حد كبير مدن القرون الوسطى، وتبدو وكأنها متأخرة عن بقية ألمانيا بعدة قرون. وتبدو الأزياء التي تباع في المدينة متأخرة عشرين سنة إلى الوراء. ويوجد في المدينة منذ سنوات عديدة مجموعة كبيرة من السكان تنتمي إلى النازيين الجدد، لذلك فهي ليست بالمكان الرحب بالنسبة للأجانب.

تسبب تدين زياد في إحداث مشاكل مع آيسل على الفور. إذ بدأ زياد ينتقد نوعية صديقاتها اللاتي تخالطهن، ولباسها غير المحتشم، وشربها الكحول. وكان الاثنان مختلفين في نواح عدة. كان هو في الغالب هادئاً

ومنعزلاً. بينما كانت هي تتحدث طوال الوقت عن أي شيء وأمام أي شخص يبدي رغبة في الاستماع. "هذه هي طريقة حياتي، هكذا هي شخصيتي. فأنا أفضل حل المشاكل عن طريق المحادثة" هذا ما قالته آيسل في إحدى رسائلها لزياد، واشتكت هي من شح زياد في إعطاء المعلومات، ومن عدم مشاركته إياها بما يدور في نفسه[17]. وفي العادة كان رد زياد بأنه أخبرها بكل ما تحتاج أن تعرفه بحسب ما يراه هو.

وفي مرحلة ما من حياتهما، يبدو أنها كانت تتفهم الظروف التي كان زياد يمر بها. فقد عايشت هي نفسها أزمة مماثلة من قبل. فبعد أن أنهت دراستها الثانوية، أرسلها والداها إلى تركيا، في محاولة منهما لتعريفها بثقافتها وتراثها. إلا أن تلك الخطوة أتت بنتائج عكسية. وبدلاً من التكيف مع البيئة المختلفة حاولت الانتحار. وتقول واصفة تلك التجربة: "كنت أعيش صراعاً ثقافياً حاداً".

"وعندما طلب مني أن أتغير، كنت أقول له أحياناً، – نعم، أنت محق –، ولكنني لم أفعل شيئاً مما يطلبه، لأنني أعرف ذلك النوع من الثقافة – إنها لا تختلف كثيراً عما يفعله الأتراك".

إلا أن هناك شيئاً واحداً كانا متفقين عليه مائة بالمائة وهو الخروج من غريفسوالد. ولدى وصوله إلى ألمانيا، أدرج زياد في الدروس التحضيرية في اللغة الألمانية كما هو متطلب من جميع الطلبة الأجانب. وكان يتوقع منه أن ينهي هذه المتطلبات خلال عام واحد، وفي ربيع 1997 بدأ بتقديم طلبات الالتحاق بالجامعات في التخصصات التي يختارها. وكان يرغب بدراسة طب الأسنان كما فعلت آيسل، فقدم طلباته إلى كليات الطب في مختلف الجامعات الألمانية. وفيما بعد، وبخطوة مفاجئة، تقدم بطلب إلى برنامج الكيمياء الحيوية في غريفسوالد، وربما كان ذلك من باب الاحتياط في حالة عدم

تمكنه من دخول كلية طب الأسنان، وبطلب آخر لدراسة هندسة الطيران في هامبورغ. وأخبر آيسل بأن هامبورغ هي المكان الوحيد الذي قبل فيه[18]. وهذا غير صحيح. فقد قبل في كلية الطب غربي ألمانيا، وفي كلية العلوم في جامعة غريفسوالد، وفي هامبورغ التي وقع عليها اختياره. لم يقدم أي سبب لهذا الاختيار كما لم يكن لديه أي معارف في المدينة، باستثناء صديق مقرب منه هو بشير مصلح، كان تعرف عليه مع مجموعة أخرى أثناء قيامة بوظيفة مؤقتة في إجازة الصيف في السنة الماضية. وكان بشير ذاهباً إلى هامبورغ؛ إضافة إلى أن المخدي كان يعرف كثيراً من الأشخاص في مسجد القدس في هامبورغ، وانتقل المخدي إلى هامبورغ مؤقتاً ليقضي فترة تدريب في عيادة لطب الأسنان.

انتقل زياد جراح إلى هامبورغ برفقة مصلح والتحقا بجامعة العلوم التطبيقية، وهي الجامعة المفضلة لدى الشباب المغربي في مسجد القدس. وسكن الاثنان في مسكن للطلبة تابع للجامعة مع شخص ثالث اسمه عباس طاهر، وهو طالب سوداني أكبر منهما سناً، وعلى صلة وثيقة بدوائر الإسلام الأصولي في ألمانيا. وأصبح طاهر على مر الزمان صديقاً مقرباً ومؤتمناً على أسرار زياد، فكان الشخص الذي يلجأ إليه حين يريد اتخاذ قرار مهم. كان في غريفسوالد إسلامي واحد متشدد هو المخدي. أما في هامبورغ، فكان فيها عشرات وربما المئات. وعن طريق طاهر، تعرف زياد على كثيرين منهم. في البداية كان زياد يزور غريفسوالد مرة كل أسبوعين لمشاهدة آيسل. وأحياناً كان يسافر بالقطار برفقة المخدي الذي أبقى أسرته في غريفسوالد.

رأس الخيمة

كان من بين القادمين الجدد إلى هامبورغ شاب اسمه مروان الشحي. وهو مواطن إماراتي قدم إلى بون لدراسة الهندسة الملاحية عام 1996، في بعثة دراسية على حساب الجيش الإماراتي، وهو ليس من بين الجيوش الضاربة في

العالم، إلا أنه من أكثرها سخاءً، حيث يقدم لمبعوثيه مخصصات شهرية بقيمة 2.200 دولار أمريكي للشخص الواحد.

ويقول شهيد نيكلز بأن الشحي كان خالي البال إلى حد بعيد، كان "كثير الأحلام، أخرق، بليداً، لين الجانب، ومدللاً شيئاً ما، هادئاً، ويحب إشباع شهواته، ورومانسياً. كان ودوداً محببا وصافي المزاج دائماً، مثقفاً، فكاهياً وأحمق أحياناً... وفيه أيضاً نوع مميز من الحس التهكمي، فكان لا يتحدث مباشرة، بل يلمح بالكلمات أو بالإشارة، لم يسبق له أن تحدث سلبياً عن الآخرين ولم أسمعه يتلفظ بكلمة سلبية. لم يشاهد قط مجهداً... كان الهدوء يشع منه[19].

كان الشحي رجلاً سميناً، وعلى العكس من محمد الأمير، كان يحب الأكل. وكان يمضي ضعفي الوقت الذي يمضيه الآخرون على طاولة الأكل ويستمتع بكل لحظة منه، وكان يدوّر حبات الأرز بين أصابعه الغليظة على شكل كرات صغيرة ليأكلها بينما يدندن، بشكل لا شعوري، أناشيد الجهاد وهو يمضغ طعامه. وكان لديه شهية جامحة لحب الحلوى، وعادة ما يحمل معه كيساً من الشوكولاتة ويشرك من حوله فيها. وهذا أبعد ما يكون عن حال محمد الأمير الذي كان "زاهداً بكل أنواع المتع والملذات"، فقد كانت الحلوى، والشوكولاتة بالتحديد في نظر محمد من الرذائل. كان الشحي بفضل منحته الشهرية من الجيش الإماراتي، أيسر حالاً من بقية رفاقه، وكانت آثار ذلك تظهر عليه أحياناً. كان يعاني من قصر النظر، فاشترى نظارة ثمينة بقيمة 400 دولار أمريكي. وكان يشتري الملابس الثمينة، واستأجر أكثر من مرة سيارات ألمانية فارهة، ومع ذلك لم يكن ثرياً. وكان ذوقه في الملابس غير متناسق، ويميل نحو سروال رسمي وقميص مبلط. وفي واقع الأمر كان الشحي من أسرة متواضعة، وكان يستاء عندما يفترض الناس تلقائياً أنه غني فقط لأنه من الإمارات.

وحدث ذلك كثيراً؛ وكان بعض الشبان المغاربة يدعونه إلى تناول وجبة العشاء معهم أملاً في أن يدفع الفاتورة عن الجميع[20].

كانت لغة الشحي الألمانية رديئة، إلا أن لغته العربية كانت ممتازة، وكان ملماً بالأدب العربي أكثر من أي شخص آخر. وعلى الرغم من كونه الأصغر سناً في المجموعة، إلا أنه كان مرجعاً في الكتاب والسنة. وفي كثير من الأحيان كان يتحف الجميع بالقصص والأساطير العربية. وفي الثقافة التي تثمّن الكلام، يتلألأ الشحي.

لم يبدر عن الشحي أدنى شك بعقيدته. ولم يتحدث عن المرأة بأي شيء سوى كونها زوجه محتملة. ولم يكن يتحدث إلى النساء إطلاقاً، إلا إذا كان مجبراً. ولم يكن في خلفيته وتنشئته أدنى نفحة من اللادينية. وبوصفه واحداً من عرب الخليج القلة في المجموعة، وابناً لأب متمكن من الدين، فقد عاش نموذجاً متشدداً من الإسلام طوال حياته، وتلقى من العلم الشرعي أكثر من أي شخص آخر في المجموعة.

تتكون الإمارات من اتحاد يضم سبع مشيخات تقع جنوب الخليج العربي. وشهرة هذه الإمارات في العالم هي بقدر شهرة إمارة دبي، المدينة التي نمت لتصبح عاصمة مالية ومدينة للترف واللهو بأضوائها اللامعة وأبنيتها العجيبة، ونسائها ذوات السمعة المشبوهة التي تنافس سمعة فتيات مدينة لاس فيغاس [عاصمة القمار واللهو] في الولايات المتحدة، بالإضافة إلى عدد كبير من المصارف الكبيرة. ودبي هي واحدة فقط من بين الإمارات السبع، وتختلف عن البقية اختلافاً بارزاً؛ فهي أكثر مدنية وعمراناً، وأكثر انفتاحاً على العالم، وتتميز عن الإمارات الأخرى بطابعها الغربي. يتحدر الشحي من إمارة رأس الخيمة التي تبعد مسافة 70 ميلاً شمال شرقي دبي، وتتأخر عنها بقرن أو قرنين من الزمان.

ويشكل البترول والغاز معظم مصدر ثروة الإمارات. ولا يكاد يوجد أي من هذه الاحتياطيات في إمارة رأس الخيمة التي تظهر عليها علامات الفقر والفاقة. ويعتبر سوق الماعز الذي يقع على طرف المدينة من بين أبرز المعالم التجارية في رأس الخيمة. ولا يوجد الشيء الكثير بين الماعز والطرف الآخر من المدينة حيث تسكن أسرة الشحي. وترعى الماعز بين الأحياء السكنية هناك برغم قلة العشب بين الصخور والرمال، وتعيش الماعز على ما يمكنها أكله من الأغصان المتدلية من بعض الشجيرات المتناثرة هنا وهناك.

تعيش أسرة الشحي في منزل متواضع وصغير مبني من الطوب وله أبواب حديدية ثقيلة؛ وقد تحول طلاء المنزل الخارجي ذي اللونين الأبيض والزهري إلى لون باهت من شدة أشعة الشمس الحارقة والرياح المحملة بالرمال التي تهب على المنطقة. وعلى جانب الطريق الترابي، يسكن أخ غير شقيق للشحي، وهو شرطي متقاعد، في منزل أكبر وأفخم من منزل أهله. وكان والد الشحي يعمل مؤذناً في مسجد الحي الذي يقع أسفل المنزل. وكان الشحي يلازم أباه كثيراً، وأحياناً يؤذن للصلاة عندما يغيب أبوه، بحسب ما يقوله سكان الحي.

انضم الشحي إلى جيش الإمارات عقب إنهائه دراسته الثانوية[21]. وبعد انتهائه من فترة التدريب، كافأه الجيش مع ثلاثة من زملائه ببعثة دراسية إلى ألمانيا، وذلك برغم أن سجله العسكري لا يظهر أنه كان لديه طموحات دراسية. وصل الشحي ورفاقه الثلاثة من الجيش إلى بون في ربيع 1996. والتحق بدورة في اللغة الألمانية، ثم أدرج في السنة التحضيرية في إحدى كليات بون. وكان يحضر دروسه ويجتهد في الدراسة، إلا أنه لم يكن ناجحاً فيها. توفي والده في ربيع 1997، وطلب الشحي إجازة من المدرسة للعودة إلى الإمارات لحضور العزاء، إلا أن الجيش رفض الموافقة على الإجازة؛ ولكن الشحي غادر على كل حال، ونتيجة لذلك رسب في تلك السنة. وعندما رجع إلى ألمانيا أعاد دراسة السنة التحضيرية ونجح في السنة التالية.

كان الشحي يذهب لأداء صلاة الجمعة كل أسبوع برفقة زملائه الإماراتيين في مبنى السفارة الإماراتية في بون. وكان يظهر التزاماً كاملاً بتعاليم الإسلام، وهو ما كان محل استغراب من بعض زملائه الإماراتيين. فقد جاؤوا إلى الغرب وكانوا يتصرفون كالغربيين، بحسب قولهم[22]. وهذا يشمل شرب الخمر ومعاقرة النساء، وهما من أبرز المحرمات في الإسلام. ولم يتفهم أصدقاء الشحي رفضه المشاركة في هذا المرح واللهو. وأبدى بعضهم استياءهم منه[23]، إلا أن الشحي كان حازماً في موقفه، وكان يصر على عدم الذهاب إلى المطاعم التي تقدم المشروبات الكحولية، وهو قرار ليس بالسهل في ألمانيا. فهؤلاء الشباب لا يصنعون الطعام في بيوتهم، وربما لا يجيدون الطبخ أصلاً. وقد جعل تشدد الشحي من الأكل في المطاعم أمراً عسيراً ومعقداً، إلا أنه كان مصراً، وسايره الآخرون على مضض. وانتهى بهم المطاف إلى المقاهي الشعبية التركية غير النظيفة. وهي الأماكن الوحيدة في ألمانيا التي لا تقدم البيرة مع الطعام. وبدلاً من أن يلطف من تشدّده بعد أن استقرت أوضاعه في الحياة الألمانية، ازداد الشحي تشدداً. وبعد وفاة والده، كان يرفض حتى الذهاب إلى مطاعم ماكدونالدز لأنه سمع أنها تستخدم شحم الخنزير في قلي البطاطس[24]. وسكن الشحي مع أسرة ألمانية مضيفة، وفيما عدا تكدره وانزعاجه عندما كان يُسأل عن سبب عدم وجود صديقة له وعدم شربه المشروبات الكحولية، فقد عاش معهم بتوافق وأريحية. ومع ذلك تقول هذه الأسرة بأنه أضفى نوعاً من البرود على جو الحياة في المنزل.

وفي شتاء ذلك العام، وعلى نحو مفاجئ، طلب الشحي من السفارة الإماراتية السماح له بالانتقال إلى جامعات هامبورغ[25]. وقام مكتب الملحق العسكري بإجراء بعض الاتصالات نيابة عنه، وانتقل على إثرها إلى هامبورغ في بداية عام 1998، وانضم فوراً إلى مجموعة هاربورغ، وانتعشت شخصيته بعدها بشكل ملحوظ. وتحول من الشخص المكتئب العبوس الزاهد في بون إلى

شخص نشط مرتاح البال، متهلل الوجه، يحب الضحك والغناء، (وهذه الصفات كانت موجودة أيضاً في عمر الذي وصفه رفاقه القريبون منه بأنه شخص ميّال إلى السرور والبهجة؛ أما الذين كانوا لا يعرفونه جيداً فقالوا عنه بأنه شخص نكد ومزعج. وربما كان محمد الأمير على درجة عالية من الكآبة والسوداوية بحيث إن أي شخص يمكن أن يبدو مرحاً بالمقارنة معه. أو ربما أن أعضاء المجموعة، على الأرجح، كانوا يشعرون بالطمأنينة والراحة فيما بينهم على نحو لا يجدونه في الآخرين).

أفغانستان

غادر محمد الأمير هامبورغ كعادته في إجازة الشتاء نهاية عام 1997. وفي هذه المرة، لم يرجع إلا بعد ثلاثة شهور. وعندما عاد أخيراً، أخبر رفاقه في السكن أنه ذهب مرة أخرى إلى مكة لأداء الحج[26]. مع العلم أنه كان قد ذهب إلى الحج قبل ثمانية عشر شهراً، ومن غير المحتمل بالنسبة لطالب – مهما كانت درجة تدينه – أن يذهب إلى الحج مرتين تباعاً، وأن يمكث هذه المدة. وكانت هذه الفترة أطول إجازة قضاها محمد خارج ألمانيا منذ قدومه إلى هامبورغ، كما أنه لا يوجد أي دليل أنه أمضى أي مدة من إجازته في القاهرة مع أهله. ويبدو على الأرجح أنه ذهب إلى أفغانستان إلى معسكرات الجهاد. ومن بين الدلائل على ذلك، أنه بعد عودته في الربيع، تقدم بطلب لتجديد جواز سفره بالرغم من أن جواز سفره القديم لم تنته مدته بعد[27]. وقال في طلبه: إنه فقد جواز سفره القديم. ويعد هذا الإجراء من الأساليب الشائعة بين الجهاديين من أجل إزالة الآثار الظاهرة لأسفارهم. وبغض النظر عن المكان الذي سافر إليه محمد، فقد أقام له أصدقاؤه حفلة احتفاءً بعودته، وهو أمر غير معهود بينهم فيما يخص الأشخاص الذين يعودون بعد زيارة طويلة إلى الوطن الأم[28].

كما غادر كل من عمر ومروان الشحي مدينة هامبورغ، وغابوا لفترات طويلة بعد ذلك عام 1998. فغاب عمر معظم إجازة الصيف، ومرة أخرى بداية الشتاء[29]. كما اختفى الشحي طيلة معظم الخريف وبداية الشتاء دون أن يعرف أحد مكانه. وسحب قبل مغادرته مبلغ خمسة آلاف دولار أمريكي من رصيده في المصرف. وظلت حسابات بطاقات ائتمانه متوقفة عن الحركة طيلة فترة غيابه، ولم يقم باستخدام تلك البطاقات لا للشراء ولا لسحب النقود طيلة الفترة الممتدة من 3 سبتمبر/ أيلول وحتى بداية ديسمبر/ كانون أول. وكحال محمد الأمير، لا يوجد أي دليل موثق يشير إلى أنهما كانا في أفغانستان، إلا أن هناك مؤشرات تدل على المكان الذي يمكن أن يذهبا إليه. فالناس في العادة لا يختفون بالكامل إلا إذا قصدوا ذلك. ومن الناحية العملية، هناك مكان واحد يمكن أن يكونوا قد توجهوا إليه، وهذا المكان هو أفغانستان.

إن الذهاب إلى المعسكرات لم يكن أمراً خارجاً عن العادة بالنسبة للشباب العرب. ويذهب عشرات الآلاف إلى المعسكرات كل عام من مختلف أنحاء العالم. وتعود غالبية الشباب منها إلى الأماكن التي كانوا يعيشون فيها دون تغيير كبير. وتوفر المخيمات أنواعاً كثيرة ومختلفة من الخبرات، والأهم من ذلك، أنواعاً كثيرة من الخبرات المكثفة. والأمر الأهم هو أن نعرف من هو الشخص الذي ذهب لكي نعرف من هو الشخص الذي عاد. وبالنسبة لكثيرين منهم، كانت هذه المعسكرات أكثر من فرصة لتغيير الجو، وأكثر من إجازة مرح ومغامرة. أما بالنسبة لمجموعة هامبورغ، فلم يكن قضاء عطلة في الخارج هو ما يسعون إليه أو هو ما وجدوه هناك.

ويلهلمزبيرغ

بعد عودة محمد الأمير إلى ألمانيا ربيع 1998، بدأت المجموعة تتحرك وتتصرف ككتلة واحدة وليس كمجوعة أفراد. وظهر كل ما يفعله قادة المجموعة

وكأنه يتم بالتنسيق مع الآخرين. ترك عمر مخيم الحاوية ليسكن مع أحد أصدقائه. وفي الصيف، عمل كل من الصبّار والمتصدق وجراح في ورشة دهان تابعة لمصنع سيارات فولكس واغن في مدينة وولفسيبرغ. أما محمد الأمير وعمر والشحي وبلفاس وآخرون فقد عملوا في مستودع لتغليف الحواسيب في طرود وشحنها بالبريد. ويقول صاحب المستودع بأنه كان يلجأ إلى توظيف الطلاب عندما يزداد العمل عنده، وهكذا وجدوا طريقهم إليه. فكان يتصل بالطلاب الذين عملوا عنده في السابق، فكانوا يخبرون بعضهم بعضاً بفتح باب التوظيف. وكان هذا العمل يبدو عادياً ومناسباً بالنسبة للطلاب ما عدا بلفاس؟ وحتى صاحب المستودع استغرب من مجيء هذا الشخص المتقدم في العمر والذي يعمل في مصلحة البريد في أثناء الليل، للعمل في مستودع لتغليف الحواسيب في أثناء النهار[30].

استنفد الأمير الحد الأقصى من المدة التي يمكنه قضاؤها في سكن الجامعة. فقد مكث في هذا السكن قرابة الستة أعوام، وهي أكثر بسنة مما تسمح به الجامعة. وذكر محمد الأمير لمدير السكن مانفريد شرودر أنه ينوي استئجار شقة قريبة مع أصدقائه[31]. وربما كان شرودر الشخص الوحيد الذي أسف لرحيل محمد من السكن الجامعي. فقد كان شرودر رجلاً مسناً، طويل القامة، مشدوداً، وفيه نفحة من السلطة العسكرية. وهو ما لم يرق لمعظم الطلبة في السكن. أما محمد، فقد كان كعادته يعامل كبار السن بالاحترام، وكان يدعو شرودر إلى شقته لتناول الشاي والشوكولاته. ومنح شرودر الأمير تمديداً لمدة سنة في السكن، إلا أنه مكث في سنترو ماشوس طويلاً، والآن قال له شرودر بأن عليه أن يغادر المكان.

غادر محمد الأمير سكن الطلاب صيف ذلك العام. وقام هو ومجموعة أشخاص، لا أحد يعرف كم كان عددهم بالضبط، باستئجار شقة في

ويلهلمـزبيـرغ، وهـي جـزيرة تقع في منتصف نهـر الألب، في تجمع سكني مبني من الطوب الأحمر قبل الحرب العالمية، ويقع على شارع عريض، قاتم، يطل على سياج حديدي وعلى ميناء هامبورغ. وكانت ويلهلمزبيرغ منطقة صناعية مستنفذة، ومنعزلة سيكولوجياً عن بقية مناطق هامبورغ لدرجة أنها تسمى أحياناً الجزيرة المنسيّة. ويمر بها الناس وهم في القطار دون أن يعرفوا ما يشاهدونه من النافذة، فهي هناك ولكنها مخفية. وإذا كنت تنوي الاختفاء عن وجه الأرض والبقاء قريباً، فإن هذا المكان هو المكان المثالي لذلك.

استأجرت المجموعة شقة مكونة من غرفتين في الطابق الثالث، في واحدة من البنايات المتعددة، والتي ترتفع الواحدة منها إلى ستة طوابق، بأجرة تبلغ 250 دولاراً شهرياً. أما الشقق الأخرى، فكانت مليئة بشكل رئيس بأفراد الطبقة العاملة من الجالية التركية، وهي أكبر جالية في ألمانيا، إضافة إلى عدد من سماسرة ومروجي المخدرات، والمومسات.

اكتملت المجموعة أخيراً وباشرت بعملها. وكان هناك ما يشبه الهمجيّة في نشاطاتهم. فكانوا قلما يشاهدون في الخارج، وعندما يخرجون، كانوا يخرجون في مجموعات[32]. في الداخل، أبقوا الستائر مغلقة ليلاً ونهاراً، ولم يكن لديهم أي أثاث، فقط الفرشات. وكانوا يكوّمون ملابسهم في زاوية الغرفة. ويفرشون الصحف على الأرض بدلاً من كساء الطاولة لتناول طعامهم وهم جلوس على الأرض. لم يكن لديهم هاتف في السكن، وفيما عدا المصابيح، لم يكن لديهم أي أجهزة كهربائية من أي نوع. كانوا يتحدثون حتى الليل في معظم الأحيان ويختفون خلال النهار. هذا ما ذكرته هيلغا ليك، جارتهم التي كانت تسكن الطابق السفلي في الشقة الواقعة أسفل شقتهم بالضبط. وكانت تسمع كل خطوة يخطونها على الأرضية الخشبية فوقها. لم تسمع قط صوت الراديو أو التلفاز ولا حتى مقطع موسيقي - فقط صوت الخطى الخفيفة وصوت أحاديث الرجال.

Obeikan.com

كان أول عنوان سجّله الشحي لنفسه لدى وصوله هامبورغ هو عنوان تلك الشقة في ويلهلمزبيرغ. وسرعان ما أصبح الشحي عضواً رئيسياً ومرحباً به في مجموعة عمر – الأمير[33]. فمن ناحية، أضفى وجوده نوعاً من البهجة على المجموعة، فكان عاملاً ملطفاً من الأمزجة الداكنة فيها. ومن ناحية أخرى، كان يبدو مستعداً لأن يكون مريداً مطيعاً وموالياً لعمر ومحمد الأمير؛ فكان لا يخالفهما ولا يناقشهما، ويعترف لهما بسلطة العلماء لا المتعلمين. كان لديه خلفية عميقة في المسائل الدينية، ويحمل شعوراً بالمسؤولية الأخلاقية. ولكنه كان متواضعاً في ذلك.

عمل محمد الأمير على تنظيم المجموعة، وفرض القواعد التي تلتزم بها. أو على الأقل، حاول ذلك. وفي إحدى المرات وبينما كان هو وعمر ومكلات ومصلح يسيرون عائدين إلى محطة القطار بعد انتهائهم من أداء الصلاة في مسجد القدس، قرر محمد الأمير السير في شارع آخر لتجنب مشاهدة المومسات اللاتي يقفن على جانبي شارع ستيدمان[34]. استهجنت البقية هذا الاقتراح لأن المسجد ومحطة القطار يقعان على الشارع نفسه، فضلاً عن أنهم يسيرون فيه كل يوم. وقال مصلح لمحمد أغمض عينيك إذا كنت لا تحتمل المشهد. وأصر محمد على المشي من طريق آخر، ورفضت البقية هذا الاقتراح، فقام محمد، كعادته في المعاندة، بالسير في طريق آخر وحده. وبعد أن توارى محمد عن الأنظار، سخرت المجموعة من تشدده وتذمروا من القواعد التي وضعها. كما بدأ محمد باستخدام مكياج أحمر؛ ولا أحد يعرف لماذا كان يفعل ذلك. وكان ذلك أيضاً محل سخرية وتندر من زملائه.

شكل عمر حلقة الوصل بين المجموعة والعالم الخارجي. وكان يبدو وكأنه على صلة بكل شخص. ففي يوم من الأيام تجده يقوم بإعداد هاتف محمول يعمل عن طريق الأقمار الصناعية، أو في اجتماع مع بعض الألبان الذين

يعرفهم من كوسوفو، وفي اليوم التالي يتوجه إلى ميونيخ أو غريفسوالد. وكان دائماً يحمل هاتفاً خلوياً، وكأنه كان يغير رقمه مراراً لدرجة يصعب معها معرفة آخر رقم عامل لديه. وكان يحمل هاتفه مع دفتر ملاحظات وقلم في جيب السترة الصدرية التي كان يلبسها دائماً. وليس من الواضح كيف كان يدفع فواتير الهاتف. فبعد أن خرج من مخيم اللاجئين السياسيين، لم يعمل عمر في أي وظيفة. وكان ينام حتى الظهيرة، ليبدأ بعدها جولته في المساجد ومنازل الطلاب وحلقات الدراسة الإسلامية في هامبورغ. وأحياناً كان يزور عشرة مساكن في اليوم الواحد. كان دائماً متأخراً بحكم العادة. وكان يتباطأ في مغادرة المكان الذي يزوره مما يفوّت عليه الوصول إلى المكان التالي في الوقت المحدد.

وأثناء زياراته المتكررة، تعرف عمر على زياد جراح بعد وقت قصير من وصول هذا الأخير إلى هامبورغ، واستطاع أن يجذبه إلى الفلك الخارجي للمجموعة. ونظراً لكثرة أسفاره داخل ألمانيا، كان من السهل عليه أن يلتقي الشحي في إحدى أسفاره. وكان عمر غامضاً بشأن أسفاره هذه، وإذا سئل عنها كان يجيب بابتسامة تآمرية. وعلى العكس من محمد الأمير الذي كان يغض بصره إلى الأرض عندما يشاهد حوله نساء، كان عمر ينظر إلى الفتيات في الشارع ويتتبعهن في نطراته، وإذا لاحظه أحد فإنه يبتسم ابتسامة خجولة وينظر إلى الجهة الأخرى[35]. وكان يتحدث عن النساء كثيراً، ولكن ليس بحضور محمد الأمير. وقال لأصدقائه ذات مرة بأنه يبحث عن زوجه. وفي أثناء سفراته العديدة، استطاع أن يقيم علاقة غرامية جادة مع امرأة في برلين وأقام معها أثناء وجوده في المدينة[36].

استمر محمد الأمير وعمر في إلقاء الدروس بانتظام في المساجد، وفي محاولاتهم لجلب المزيد من الأعضاء إلى مجموعتهم، وذلك بالرغم من أن

نجاحهما في العثور على الأعضاء الجدد كان أكبر من قدرتهما على الاحتفاظ بهم. وكان محمد الأمير على وجه التحديد مقطباً ومتشدداً جداً في ممارسته للإسلام لدرجة نفّرت الطلاب وأبعدتهم عن الحلقة. ويقول شهيد نيكلز في هذا الصدد: "في النهاية، لم يبق أحد في الدروس، "فكان محمد يجلس فيها وحده".

كانت حلقات محمد قاسية في هيكلها، وكانت المشاركة والأدوار موزعة على الحضور: فكانت تقرأ صفحة من القرآن (من قبل شخص يختاره محمد)، يتبعها تفسير لتلك الآيات، وتعليقات من الأحاديث المتعلقة بها، ثم تفسر هذه الأحاديث. وبعد ذلك يعلّق محمد برأيه على ما قرئ من مواد. وبعد الفراغ من ذلك يسمح بطرح الأسئلة. وإذا حاول أحد أن يخرج عن هذا النظام المتبع، تظهر مظاهر الانزعاج على محمد الذي يبدأ بعضّ شفته السفلى كإشارة على ذلك[37]. ولما حاول مكلات أن يقوم بدور القارئ في إحدى حلقات التعليم، رفض محمد طلبه قائلاً: "إنك ضعيف جداً"، وعندما سأله مكلات: لماذا لا يضحك، أجابه محمد: "كيف تضحك والناس يقتلون في فلسطين"[38].

وقال له محمد الأمير في مناسبة أخرى: "الضحك يميت القلب". وحتى بلفاس الذي كان يعتبر الأمير بحكم الابن بالنسبة له، قال له ذات مرة: "ربما إنك بكل هذه الشدّة مرسل إلينا من قبل [اليهود] لخلق البلبلة والتشويش بين المسلمين"[39]. وذكر الأمير لأصدقائه بعد تلك الحادثة بأنه بدأ يفقد احترامه لبلفاس لأن هذه الأخير بدأ يتساهل في دينه[40].

ومن المرات القليلة التي شوهد فيها محمد الأمير وهو يضحك من أي شيء، كانت أثناء التقاء مجموعة من الأشخاص لمشاهدة برنامج وثائقي حول الانتفاضة في شقة بلفاس. وكان من بين الحضور شخص يدعى فولكر هارن بروهن، وكان يدرس الإسلام على يد بلفاس. وقال فولكر بأن البرنامج يحكي قصة شاب فلسطيني حاول أن يفجر نفسه في عملية انتحارية، إلا أن القنبلة

انفجرت قبل موعدها، فتسبب ذلك في إحداث إصابات بالغة في جسمه[41]. فتم تحويله إلى مستشفى إسرائيلي وهو فاقد الوعي. واستيقظ وهو في غرفة العمليات، ونظر حوله فرأى الأطباء والممرضات في زيّهم الأبيض وتغطي وجوههم الكمامات وهم يحيطون به من كل جانب، فتساءل الشاب: "هل أنا في الجنة؟"

فرد عليه أحد الأطباء بسؤال من عنده وجهه إلى الانتحاري وهو ما إذا كان يعتقد بإمكانية أن يوجد في الجنة يهود.

فرد الانتحاري، "لا".

فقال له الطبيب: "أعتقد أنك لست هناك بعد".

وقد أضحك هذا المشهد كل الحضور بمن فيهم محمد الأمير.

وعلى الرغم من عبوس الأمير إلا أن روحاً من الأخوة سادت بين أعضاء المجموعة. وبالرغم من تطرف أهدافها، عاشت المجموعة في بيئة تشبه روضة الأطفال. فقد كانوا يتشاركون في المسكن، وفي حساباتهم المصرفية، وفي سياراتهم، وكانوا يلتزمون بتعاليم دينهم التزاماً حرفياً، ولكنهم سخروا من أنفسهم ذات مرة لأنه لم يوجد من بينهم من يحسن ذبح شاة بحسب الأصول في عيد الأضحى. كانوا يصلون في اليوم خمس مرات، وغالباً ما يمسكون بأيدي بعضهم بعضاً أثناء الصلاة، وكانوا يلتزمون بأحكام الأطعمة الإسلامية، وحتى إنهم ناقشوا ذات مرة أحكام طول اللحية الموافق للشرع. وكان الشحي هو الخبير باللحى، موضحاً أن طول اللحية يجب أن يزيد على قبضة اليد ببوصتين. وكانوا يتحدثون إلى ما لا نهاية حول نظريات المؤامرة وحول الفساد الذي سببه اليهود. بما في ذلك افتراضهم الذي لا يتطرق إليه الشك أن مونيكا لوينسكي كانت من عملاء الموساد، وأنها أرسلت إلى البيت الأبيض للإطاحة بالرئيس بيل كلينتون. ولغايات التسلية، كانوا يشاهدون أفلام الفيديو

عن معارك الشيشان، وكانوا ينشدون الأناشيد حول الشهادة. وكان الشحي يحب المشي نحو الشقة هو وعمر وهما يرددان أناشيد الجهاد معاً. وعندما كان يأتي شهيد نيكلز يحييانه ويضحكان وهما ينشدان أنشودة "يا شهيد".

وخلال رمضان، كانت المجموعة تطوف حول الجالية المسلمة، فكانوا يفطرون مع الهنود والماليزيين، والأتراك، أو أي شخص يوجه لهم الدعوة. وحتى في هذه الأحوال، كان محمد الأمير يحاول فرض قواعده التي يرى أنها واجبة التطبيق. وذات مرة، وفي منزل أحد الأتراك، توجه محمد إلى المطبخ ليستعجل إحضار الطعام بحجة أن الوقت قد دخل وأنه لم يتم الالتزام بالجدول الزمني للإفطار. وكالعادة، تبعه عمر لكي يتدارك الموقف كصانع سلام، محاولاً تلطيف المشاعر والأجواء بشيء من المزاح والنكت[42].

كان عمر رومانسياً جداً حول الجهاد. وكان يصف الجهاد للناس بقوله: "إنه أفضل شيء يمكن أن يفعله المرء،... يموت المجاهدون بسلام وطمأنينة. يموتون والابتسامة تعلو شفاههم، وتكون أجسامهم ناعمة، بينما تكون جثث موتى الكفار متيبسة"[43].

اتخذت الأمور في هامبورغ بعد ذلك منحى طارئاً. وأصبحت ترتيبات السكن أكثر مرونة. ويذكر نيكلز بأن أعضاء المجموعة ظهروا وكأنهم مستعدون للمغادرة في أية لحظة. فانتقلوا من وإلى الشقق السكنية، وبدؤوا بممارسة التمارين الرياضية، وذلك بالرغم من أن نواياهم كانت أكبر من أدائهم. وفي بعض الأحيان لم تتجاوز هذه التمرينات مجرد المشي حول الشارع. وانضم أحدهم وهو سعيد بهاجي إلى الجيش الألماني، ثم سعى إلى التسريح من الخدمة بعد أن أنهى تدريبات المعركة. وقد كان بإمكانه تجنب الخدمة أصلاً منذ البداية (بسبب معاناته من الربو)، إلا أنه غيّر رأيه فجأة لأنه كان يرغب في الحصول على التدريب فقط. وحاول الشحي هو الآخر تحسين لياقته

البدنية، فاشترى دراجة هوائية وكان يركبها حول هامبورغ، تحضيراً للجهاد، بحسب قوله[44]. نظّم الرجال شؤونهم الشخصية، فحرروا وكالات تخول أصدقاءهم التصرف بحساباتهم المصرفية. وسارعوا بإنهاء متطلباتهم الدراسية، أو تخلوا عن كل ذرائعهم في المحاولة.

تزايدت سرعة الحركة في المجتمع الجهادي الأوسع أيضاً. ففي ربيع 1998، أصدر أسامة بن لادن فتواه الثانية الشهيرة ضد الولايات المتحدة. وهي إعلان لشن حرب مقدسة ضد الأمريكان وأعوانهم حول العالم. وبذلك أطلقت الرصاصة الأولى المؤذنة ببدء المعركة. وعلى الرغم من أن هذا الإعلان لم يسمع له صدى داخل الولايات المتحدة، إلا أنه كان أداة أساسية في تعزيز صورة ابن لادن بين صفوف الجهاديين. وكان بهاجي من أشد أنصار ومؤيدي ابن لادن ومسيرته الجهادية. وكان ينزّل خطب وخطابات ابن لادن من الإنترنت إلى حاسوبه الخاص ثم يصنع عشرات النسخ منها لتوزيعها على أصدقائه المقربين[45]. وكان ينظر إلى ابن لادن على أنه الرجل الذي سيقف في وجه الولايات المتحدة ليس فقط بالكلام بل بالفعال. وقد بدأت الحرب فعلاً. وفي صيف ذلك العام، نفّذ هجوم على سفارتين أمريكيتين شرق إفريقية بواسطة شاحنات مفخخة. وقتل المئات. ولم يكن لحقيقة أن غالبية الذين قتلوا في ذلك الهجوم هم من المسلمين الأفارقة اعتبار يذكر لدى المؤمنين الحقيقيين.

هاربورغ

لم تمكث المجموعة طويلاً في ويلهلمزبيرغ. وفي شتاء ذلك العام، انتقل محمد الأمير وعمر – والشحي – بعد عودته إلى المدينة، إلى شقة نظيفة مرتبة تم ترميمها وصيانتها مؤخراً. وتقع على شارع مارينستراس 54، وهي بناية سكنية تقع على شارع منحدر يخلو من الأشجار، ويبعد مسافة مسير خمس دقائق عن جامعة هامبورغ – هاربورغ التقنية، وهي الجامعة التي ما زال

الأمير والشحّي يدرسان فيها. وتعد هذه الشقة نقلة نوعية مقارنة بالشقة الواقعة في ويلهلمزبيرغ: فهي مكونة من ثلاث غرف نوم، ومطبخ كامل ومجهز، وطلاء جديد، ووحدة تدفئة جديدة. فكانت نقلة من العالم الثالث إلى العالم الأول. وأطلق بعض الأصدقاء على الشقة اسم دار الأنصار، وسجلوها بهذا الاسم في دفاتر هواتفهم[46].

يقول ثورستن ألبيرخت، مالك البناية، بأنهم كانوا مستأجرين جيدين. وكانوا يدفعون الأجرة في وقتها المحدد، ولم يتسببوا في أية مشكلات. وظن ألبيرخت، بحسب ما يوحيه مظهرهم وتصرفاتهم، أنهم من طلبة الفلسفة في الجامعة؛ وكانت تظهر عليهم دائماً علامات انشغال الذهن والتأمل العميق. وكانوا يرتدون الدشداش العربي، أو ملابس غربية ذهبت موضتها منذ زمن. ويتذكر ألبيرخت، وهو من سكان هامبورغ الأنيقين في العادة، بازدراء كيف أن أحدهم كان يلبس دائماً بنطلون جينز لونه بيج وعريض جداً من الأسفل[47].

يبدو أن المستأجرين على شارع مارينستراس 54 كانوا كالأشياء المثلية. فعلى مدى سنتين، أدرج أكثر من اثني عشر شخصاً ذلك العنوان كعنوان مسجل لهم. وكانوا يأتون ويخرجون بحسب ما تمليه عليهم احتياجاتهم أو رغباتهم. انتقل الشحّي من الشقة بعد شهر واحد، واستأجر شقة خاصة به وحده في منطقة قريبة. وقال بأنه يعتزم السفر إلى الإمارات للبحث عن زوجة هناك والعودة بها إلى هامبورغ. وحل بهّاجي الذي يحمل الجنسية الألمانية، وكان طرفاً في عقد الإيجار الأصلي، محل الشّحي.

كان بهّاجي طالباً في كلية الهندسة الكهربائية في جامعة هامبورغ – هاربورغ التقنية ومبرمجاً ماهراً للحاسوب بحسب إفادة رؤسائه في الشركة التي عمل فيها بدوام جزئي. وكان من المولعين بالحاسوب، فكان يبدو أكثر ارتياحاً أمام لوحة مفاتيح الحاسوب منه في أي وضع اجتماعي آخر[48].

وعندما قدم إلى هامبورغ بداية عام 1995، كان كمن عاد إلى وطنه الأم. تعرف أبوه المغربي على أمه الألمانية في ألمانيا وتزوجا هناك. وولد بهاجي في ألمانيا عام 1975. ثم انتقلت الأسرة إلى المغرب عندما كان في التاسعة من العمر، وعاد هو إلى ألمانيا ليدرس في الجامعة.

لم يختلف بهاجي عن أي طالب جامعي ألماني عادي. فقد كان مولعاً بألعاب الفيديو وسباق السيارات فورميولا ون[49]. وفي سنته الجامعية الأولى، تعرف على فتاة ألمانية كاثوليكية عاشت في البرازيل، ووقع في غرامها. وكانت مثله تماماً من الناحية الثقافية: فلا هي ألمانية بحته بسبب نشأتها في البرازيل، ولا هي أجنبية بالكامل. وعندما اتخذت العلاقة بينهما منحى جدياً، أصرّ أهل البنت على وضع نهاية لتلك العلاقة وذلك بإرساله ابنتهم إلى الخارج للتأكد من انتهاء تلك العلاقة. وخلال تلك الفترة كان بهاجي يعيش في سكن الطلاب الجامعي، وكان يمضي عطلة نهاية الأسبوع مع خالته باربرا آرينز[50]. وتقول آرينز بأن بهاجي كان مكسور القلب متألماً من نهاية علاقة الغرام تلك، كما أنه كان مستاءً من عدم وجود المال الكافي لديه كبقية أقرانه الطلاب. ولذلك لم يكن يخالطهم كثيراً. كما أنه كان موضع تهكم من أقرانه لأنه كان ألثغ اللسان أعرج المشية. ولكن لم يمض وقت طويل حتى وجد حلقة جديدة من الأصدقاء بين الطلبة المغاربة، ومن بينهم أشخاص كانوا يترددون على مسجد القدس. وتقول خالته بأنه بدأ يتغيّر بشكل ملحوظ وبسرعة. وبعد عدة شهور فقط، أصبح الطالب الذي كان "مؤيداً لأمريكا وألمانيا وأوروبا" يدعو كل شخص يعرفه إلى الإسلام، بمن فيهم خالته التي لم تكن ترغب بمعرفة أي شيء عن الإسلام. فتجافت العلاقة بينهما شيئاً فشيئاً إلى أن رفضت السماح له بدخول بيتها في النهاية.

تعرف منير المتصدق، وهو من أصل مغربي، على بهاجي في مسجد القدس، وعرّفه بدوره على محمد الأمير وعمر. وعلى الرغم من أن بهاجي لم

يكن لديه أي خلفية أو تعليم إسلامي، وكان على المجموعة أن تعلمه كيفية أداء الصلاة، إلا أنه أصبح وبسرعة واحداً منهم[51]. وما إن انتقل إلى شقة عمر والأمير، حتى كتب إلى صديقته القديمة يقول لها بأنه لم يعد يغضب عندما ينظر إليه الألمان على أنه أجنبي لأنه "لم يعد يشعر أنه ألماني"[52].

ومع مرور الوقت، أصبح التركيز على الدين هوساً يستحوذ على المجموعة. وتزايدت حدة المناقشات برغم قول بعض الأصدقاء فيما بعد بأنها كانت عشوائية وعابرة. وفي أحد الأسابيع عزم أعضاء المجموعة على الذهاب للقتال في كوسوفو، وفي الأسبوع التالي غيّروا رأيهم وقالوا الشيشان أو أفغانستان أو البوسنة. واتفقوا أخيراً على أنهم يريدون القتال، ولكنهم لا يعرفون في أي حرب.

وبينما اختار محمد وعمر إلقاء الدروس في المسجد، كان الشبان المغاربة من مسجد القدس، وفيهم قسم كبير يعمل في متجر غلوبيتروتر (المتخصص في بيع لوازم الحياة خارج المنزل)، كانوا أكثر اندفاعاً. فقد نصبوا أنفسهم مسؤولين عن مراقبة تطبيق أحكام الإسلام، أي شرطة دينية غير رسمية، وأخذوا على عاتقهم مسؤولية التأكد من التزام الشباب العرب بأحكام الإسلام[53]. وفي إحدى المناسبات، تلقى أحد الشبان ضرباً مبرحاً منهم لأنه رفض إطلاق لحيته، وهدّدوا طلاباً آخرين بالسكاكين[54]. وفي مناسبة ثانية، أعلن المتصدّق أن أي امرأة تلبس تنورة قصيرة تستحق أن تُغتصب[55].

وكان من الواضح أنهم لم يسمحوا للصداقة أن تخفف من حدّة مطالبهم، كما ظهر من علاقة الصبّار بياسر بوغلال. فقد تعرّف الاثنان على بعضهما بعد فترة وجيزة من وصولهما إلى ألمانيا قادمين من المغرب، ودرسا معاً لمدة سنة في كويثين[56]. وفي المغرب، التحق الصبار بالأكاديمية العسكرية ووقع عليه الاختيار ليصبح طبيباً في الجيش، وهي فرصة مرموقة يطمح إليها كثير من الناس، إلا أنه تخلّى عنها فجأة قبل أن يأتي إلى ألمانيا. ويقول بوغلال بأن

ذلك الشيء الوحيد الذي كان الصبّار يرفض التحدث عنه. وفي كويثين، أصبح الاثنان صديقين حميمين، وتعرف كل منهما على أسرة الآخر. وحضر الصبّار حفلة زفاف بوغلال وكان عرّاب الحفل. إلا أن بوغلال كان الأقل التزاماً بالدين دائماً؛ فقد كان يدخّن، ويشرب الكحول، وكانت زوجته الجديدة غير مسلمة، ومع ذلك كان الاثنان يستمتعان برفقة بعضهما بعضاً وكان بينهما ثقة مشتركة. ثم انتقلا معاً إلى هامبورغ. وحدث شيء ما بعدها. التحق الاثنان بجامعة العلوم التطبيقية، وبدأا بالتباعد التدريجي عن بعضهما بعضاً بعد أن وجد كل واحد منهما أصدقاء جدد. وبدأ الصبّار بحضور الصلاة في مسجد القدس، وخلال أشهر فقط تحوّل تحولاً دراماتيكياً. ويقول بوغلال: "فجأة أصبح متشدداً جداً، ومتصلباً في القضايا الدينية: توقف عن الضحك والفكاهة. ولم يوضّح لي أبداً لماذا تغيّر"(57).

وفي أحد الأيام، وبعد أن غاب عنه الصبّار لفترة طويلة، تلقى بوغلال مكالمة هاتفيّة في منزله من الصبّار.

وسأل الصبّار: "متى ستتحوّل زوجتك إلى الإسلام؟"

أجاب بوغلال: "لن تفعل ذلك أبداً".

وعاود الصبّار الاتصال بعدها مراراً وتكراراً مكرراً السؤال نفسه. وإذا دخلت زوجة بوغلال على الخط بطريق الخطأ، كان الصبّار يغلق السماعة. وكما بدأ مكالماته فجأة، توقف عنها فجأة؛ ولم يتحدث الاثنان بعدها لعدة شهور. ثم اتصل الصبّار مرة أخرى. وسأل: "ماذا عن زوجتك؟ هل أسلمت؟".

"لا"، أجاب بوغلال. وتحدث الاثنان لوقت قصير، ثم قال الصبّار "وداعاً". فسأله بوغلال: "كيف يمكنني رؤيتك أو الاتصال بك؟". فأجابه الصبّار قائلاً: "إنك لن تراني أو تسمع مني بعد اليوم".

وكان ذلك، إلى حد بعيد وبكل المعايير، صحيحاً. فرجال هامبورغ الذين نذروا أنفسهم للإسلام الأصولي، لم يختاروا فقط مسجداً جديداً أو مذهباً دينياً معيناً، بل دخلوا في طريقة حياة جديدة، وتبنوا مفهوماً جديداً ونظرة مختلفة إلى الحياة والعالم، وفي الواقع دخلوا في عالم جديد. وكما في حالة الصبّار، لم يتطلب الأمر كثيراً من الوقت. فقد كان الصبّار وبوغلال صديقين قريبين لأكثر من عام. وبعد أن "تحوّل" الصبار، ولم يتحوّل بوغلال، كانت تلك نهاية الصداقة بينهما. وطلب الصبّار حتى من أبيه أن يطلق لحيته. وقام والد بوغلال بزيارة ابنه في ألمانيا وذهب معه إلى مسجد القدس ذات مرة لأداء الصلاة. ويقول بوغلال بأن اليوم الذي ذهبا فيه إلى المسجد كان يوماً عادياً، إلا أن والده كان منزعجاً جداً مما رآه لدرجة أنه طلب من ابنه أن لا يطأ ذلك المكان ثانية خوفاً من أن يكون مصيره السجن إذا عاد إلى المغرب، وهي كبقية الدول العربية، تعتبر المسلمين المتطرفين خطراً على أمن واستقرار البلاد[58].

ويقع في جوهر الاعتقادات التي تكونت لدى المجموعة ذلك الشعور بوجوب أداء واجباتهم نحو الله. "وكان عمر ينظر إلى الجهاد على أنه التحدي الأكبر" كما يقول نيكلز[59]. وكان يرى كذلك بحسب ما يذكر نيكلز أن "من واجب المجتمع المسلم أن يكون فيه مقاتلون مستعدون للجهاد. فالمجتمع المسلم هو كالجسد، إذا تألم منه عضو تألمت باقي أعضاؤه. وقال أكثر من مرّة بأن أفضل أعمال المسلم هو الموت في الجهاد".

وفي إحدى المناسبات، سأل محمد الأمير مكلات عندما كانا معاً في أحد الأسواق: "هل أنت مستعد للقتال في سبيل دينك؟"[60].

فأجاب مكلات: "ليس بعد".

فرد عليه محمد: "إخواننا يموتون في البوسنة والهرسك وأنت تقول لا".

وفي مناسبة أخرى وجه محمد الأمير النقد إلى مكلات لشرائه مأكولات ثمينة؛ "إنك تعيش وكأنك في الجنة، بينما إخواننا يموتون حول العالم"[61].

ظهر عمر بوصفه القائد الوجداني لهذه المجموعة الصغيرة. وكان محمد يضع السياسيات ويقرر ما يجب على المجموعة أن تدرسه وكيفية فعل ذلك. إلا أن عمر كان الشخص الذي يزودهم بالشعور بالهدف[62]. وكان يقول لبقية المجموعة بأن عليهم واجب الذهاب إلى الأماكن التي يحارب فيها الإسلام للدفاع عنه كمقاتلين مقدسين. وكان يسمعهم أشرطة أناشيد الجهاد ويعرض عليهم بعض أشرطة فيديو الدعائية الجهادية في الشيشان والبوسنة وكوسوفو. وكان يعرض هذه الأشرطة حول المدينة: في سكن الطلاب والشقق الخاصة. ومن الأركان المهمة التي كان يدعو إليها محمد وعمر هي أنه وبغض النظر عن المكان الذي يقاتلون فيه، فإن عدوّهم الحقيقي هم اليهود. وفي النهاية الأمريكان. وكان عمر يقول: "يجب فعل شيء بشأن أمريكا".

وذات مرة، عندما اشتكى نيكلز من أن المعاناة الفلسطينية لا حل لها، وأن أمريكا وإسرائيل هما من القوة بمكان بحيث لا تجدي مواجهتهما بالقوة، ردّ محمد الأمير قائلاً: "هذا غير صحيح، يمكن لفرد واحد أن يفعل شيئاً، هناك طرق ووسائل. الولايات المتحدة ليست قوتها مطلقة"[63].

وعلى الرغم من أن كلاً من الأمير وعمر كانا متفقين على أشياء كثيرة، إلا أنهما كانا يركزان على أشياء مختلفة. كان عمر متحفزاً ومندفعاً بالعقيدة، بينما كان محمد مدفوعاً بالسياسة. ويقول نيكلز في هذا الصدد: "بالنسبة للأمير، كان دائماً يكنّ الكراهية لليهود، وكان شديد العاطفة تجاه القضايا السياسية، بينما كان عمر عاطفياً في المسائل الدينية". وكان الأمير يرى مؤامرة عالمية تأخذ مجراها، ينفذها الأمريكان ولكن يقودها دائماً اليهود. وكان يلوم اليهود ويحمّلهم المسؤولية عن كل شر يمكن تصوّره. وذات مرة،

عندما كان هو ونيكلز في الشقة، ذهب محمد إلى الحمام ليقضي حاجته. وأثناء ذلك، صدرت عنه أصوات سمعها نيكلز من غرفة الجلوس ولم يستطع أن يحبس نفسه عن الضحك. وعندما خرج محمد الأمير أنحى باللائمة على اليهود لصنعهم باب الحمام من الخشب الرقيق"[64].

وفي حلقات التعليم والمناقشات، كان الأمير يتحدث دائماً عن الفرقة والاختلاف داخل الإسلام، وكيف أنه لا يوجد أمة مسلمة متحدة[65]. وكان عمر من المعجبين بأسامة بن لادن، ويسميه الرجل العظيم، بينما لم يبد محمد الأمير رأيه فيه، وكان يقول ربما هو كذلك، وربما هو غير ذلك[66].